بحوث ودراسات



العدد العشرون
أغسطس 2006م
رجب 1427هـ
المجلد العاشر

فتح الدين بيانوني*

مرتكزات المستشرقين في دراسة علم الحديث والسنة النبوية[1]
دراسة استقرائية تحليلية

مقدمة

إن التعرف على المرتكزات الثقافية والمنهجية للمستشرقين في دراسة علم الحديث الشريف يعد من القضايا المهمة والمقدمات الرئيسة التي تعطي تصورا عاما عن جهود المستشرقين في علم الحديث ودراسة السنة النبوية، وتعين على فهم موقفهم منها، وتفسير كثير من شبهاتهم حولها. ولذا يحسن الاهتمام بتلك المرتكزات قبل الدخول في تفصيلات شبهات المستشرقين حول الحديث، فهي تمثل مدخلا عاما لموضوع الاستشراق وعلم الحديث. وإذا كانت مرتكزات المستشرقين في دراسة العلوم الإسلامية عامة تتشابه في بعض جوانبها، فدراسة المستشرقين لكل علم من تلك

* دكتوراه في الدراسات الحديثية والاستشراق، جامعة جلاسجو، 1995م، أستاذ مساعد في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[1] أصل هذا البحث ورقة مقدمة إلى ندوة "الجهود المبذولة في خدمة السنة النبوية من بداية القرن الرابع عشر الهجري إلى اليوم"، 25-1426/3/26هـ الموافق 4-2005/5/5م، كلية الشريعة والدرسات الإسلامية، جامعة الشارقة، إمارة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة. وقد تم تطويره وتخصيصه بالمرتكزات المنهجية.

العلوم لها منطلقاتها الخاصة بها التي يجدر بالباحثين تخصيصها بالدراسة والبحث.

وقد تعددت الكتابات الحديثة في بيان موقف المستشرقين من الحديث الشريف أو السنة النبوية المطهرة، ومناقشة شبهاتهم حولها، مثل شبهة تأخر تدوين السنة، وشبهة تطور الإسناد، وشبهة اهتمام المحدثين بنقد سند الحديث وإهمال نقد المتن، وغير ذلك من الشبه.[1] كما تناولت بعض الدراسات نقد مناهج المستشرقين في دراستهم لعلم الحديث والسيرة النبوية.[2]

ومع أهمية تلك الكتابات في مناقشة شبهات المستشرقين والرد عليها، إلا أن المرء لا يتمكن من فهم طبيعة اهتمام المستشرقين بالحديث الشريف، والحصول على صورة كلية لدراساتهم في هذا المجال، إلا بعد الاطلاع على تلك الدراسات أو معظمها، والنظر في طبيعة الشبهات التي تناقشها. ومن هنا تأتي أهمية تخصيص المرتكزات الثقافية والمنهجية لدراسات المستشرقين في علم الحديث بالدراسة والبحث، ومناقشتها بأسلوب مباشر أو غير مباشر؛ فإن ذلك كفيل بتجلية الصورة العامة لدراسات المستشرقين في علم الحديث، والرد ضمنا على كثير من الشبهات الجزئية الناتجة عنها.

---

[1] انظر حول هذا الموضوع: الأعظمي، محمد مصطفى، **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه** (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ط3، 1401هـ/1981م)؛ **منهج النقد عند المحدثين: نشأته وتاريخه** (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، ط2، 1402هـ/1982م)؛ والجبري، عبد المتعال محمد، **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين** (القاهرة: مكتبة وهبة، 1408هـ/1988م)؛ والندوي، د. تقي الدين، **السنة مع المستشرقين والمستغربين** (مكة المكرمة: المكتبة الإمدادية، 1402هـ/1982م)؛ وحسين، د. محمد بهاء الدين، **المستشرقون والحديث النبوي** (كوالالمبور: دار الفجر، ط1، 1420هـ/1999م).

[2] انظر في هذا المجال: خليل، عماد الدين، "المستشرقون والسيرة النبوية" مجلة **البعث الإسلامي** (تصدرها ندوة العلماء، لكهنو، الهند)، المجلد السابع والعشرون، العددان الأول والثاني، رمضان وشوال 1402هـ/يوليو وأغسطس 1982م)؛ وخليل، د. عماد الدين "المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات"، في **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1405هـ/1985م)، ج1، ص 115-201؛ و الأعظمي، د. محمد مصطفى، "المستشرق شاخت والسنة النبوية" في كتاب **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**، ج1، ص63-110؛ والدريس، د. خالد، **العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة** (الرياض: دار المحدث، 1425هـ).

وستقوم هذه الدراسة ببيان المرتكزات الثقافية والمنهجية الرئيسة لدراسات المستشرقين في علم الحديث والسنة النبوية المطهرة وتجلية بعض آثارها ونتائجها في كتاباتهم، تنبيها للباحثين حتى يولوها اهتمامهم وهم يدرسون كتابات المستشرقين في علم الحديث الشريف، ويناقشون شبهاتهم حوله. وسيتم تناول ذلك في مطلبين، حيث يعرف المطلب الأول بالاستشراق وعلاقته بعلم الحديث وموقف الباحثين منه، ويعرض المطلب الثاني لأهم المرتكزات الثقافية والمنهجية لدراسات المستشرقين في علم الحديث. أما الخاتمة فتتناول أهم نتائج البحث وتوصياته.

تعريف الاستشراق وعلاقته بعلم الحديث

1. تعريف الاستشراق ونشأته

الاستشراق حركة فكرية ثقافية يقودها عدد من مثقفي الغرب المعتنين بالدراسات العربية والإسلامية والشرقية بشكل عام. والمستشرقون هم الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية.[1] ويعرف قاموس أكسفورد المستشرق (Orientalist) بأنه: "من تبحر في لغات الشرق وآدابه".[2]

وتعود نشأة الاستشراق رسميا إلى عام 712هـ/1312م، حيث قرر المجلس الكنسي في فيينا تأسيس كراسي جامعية لدراسة اللغات الشرقية، وخاصة العربية والعبرية والسريانية، وذلك في الجامعات الأوروبية الرئيسة. وقد صدر هذا القرار بناء على اقتراح قدمه المستشرق المشهور ريموند لول (1235-1316م) الذي كان يحث النصارى الأوروبيين على تعلم اللغة العربية، وذلك بهدف تنصير المسلمين، الأمر الذي يؤكد لنا

---

[1] بن نبي، مالك، **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث** (بيروت: دار الإرشاد، ط1، 1388هـ/ 1969م)، ص5.

[2] جحا، د. ميشال، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا** (بيروت: معهد الإنماء العربي، ط1، 1982)، ص17. وانظر تفصيلا حول معنى كلمة مستشرق في المرجع نفسه، ص15-17.

الصلة الوثيقة بين الاستشراق والتنصير.[1] والجدير بالذكر أن كثيرا من المستشرقين المهتمين بالدراسات الإسلامية هم في الأصل من رجال الدين اليهود أو النصارى.

ويرى بعض الباحثين تعميم تعريف الاستشراق ليشمل غير المسلمين من العرب وغيرهم الذين اهتموا بدراسة علوم المسلمين وحضارتهم ومعتقداتهم وعاداتهم،[2] فيعرفون الاستشراق بأنه: "مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة".[3]

هذا عن الاستشراق الرسمي، أما الاستشراق غير الرسمي فيمكن أن يؤرخ له بتاريخ الفتوحات الإسلامية التي دقت أبواب أوروبا ووصلت إلى الأندلس في القرن الثامن الميلادي (أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري)، تلك المنطقة التي أصبحت بدخول المسلمين إليها مركزا من المراكز الثقافية المتميزة على مستوى العالم أجمع، فكثرت فيها الجامعات ودور العلم، وبدأ أبناء الغرب يتوافدون إليها عن طريق البعثات العلمية إلى مدارس الأندلس، طلبا للعلم والمعرفة على أيدي العلماء المسلمين، وقد رجع كثير من المبتعثين متأثرين بالثقافة الإسلامية، وداعين إليها.

يتحدث الدكتور مصطفى السباعي عن نشأة الاستشراق، فيقول: "لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية، ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها،

---

[1] زقزوق، د. محمود حمدي، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** (الدوحة: كتاب الأمة، 1405هـ/ 1985م)، ص18 وما بعدها. وانظر:

Said, W. Edward. *Orientalism*, New York, Vintage Books, 1979, pp. 49f.

[2] النملة، د. علي بن إبراهيم، "كنه الاستشراق: مناقشات في التعريف والنشأة والدوافع والأهداف"، مجلة **دراسات استشراقية وحضارية**، مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية، كلية الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المدينة المنورة، العدد الأول، 1413هـ/1993م)، ص27.

[3] وزان، عدنان محمد، **الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر** (مكة المكرمة: سلسلة دعوة الحق، رقم 24، رابطة العالم الإسلامي، 1404هـ/1984م)، نقلا عن المرجع السابق، للدكتور النملة، ص28.

وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات".[1] ويذهب الدكتور علي النملة إلى أن هذه الحقبة هي التاريخ الحقيقي لبداية حركة الاستشراق، وأن ما كان قبل هذه الفترة يعد من قبيل الإرهاص والمقدمات لها، وما أتى بعدها يعد من قبيل تعميق الفكرة والتوسع فيها.[2]

والذي يعنينا -كما يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق- "هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق، الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي، عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق".[3] فقد تناولت حركة الاستشراق العلوم الإسلامية بمختلف أنواعها ومراحل تطورها، ولعل من أبرزها: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، والعقيدة الإسلامية، والفقه الإسلامي، والتصوف، واللغة العربية.

وموضوع هذه الدراسة الاستشراق وعلم الحديث الشريف. وعلم الحديث الشريف هو ذلك العلم الذي يختص بتحمل الحديث وأدائه ودراسة متنه وإسناده لمعرفة المقبول والمردود من الروايات، وهو يشمل علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية. فعلم الحديث رواية هو: "علم بنقل أقوال النبي ﷺ وأفعاله، بالسماع المتصل، وضبطها وتحريرها".[4] أما علم الحديث دراية فهو "علم يتعرف منه: أنواع الرواية

---

[1] السباعي، مصطفى، **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1405هـ/1985م)، ص13.

[2] انظر الدكتور النملة، مقال "كنه الاستشراق"، ص39.

[3] زقزوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، ص20.

[4] ابن الأكفاني، أبو عبد الله محمد بن ساعد الأنصاري، **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد** (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط1، 1414هـ/1994م)، ص107.

وأحكامها، وشروط الرواة، وأصناف المرويات، واستخراج معانيها".[1] أو كما يعرفه الحافظ ابن حجر: "القواعد المعرفة بحال الراوي والمروي".[2]

وقد اعتنى المستشرقون في القرنين الأخيرين –الرابع عشر والخامس عشر الهجري / التاسع عشر والعشرين الميلادي[3]– بدراسة الحديث الشريف وعلومه عناية كبيرة، وخصوه بكثير من أبحاثهم ودراساتهم، فلا يخفى عليهم –وهم الدارسون لثقافة الشرق وعلومه– أهمية الحديث الشريف عند المسلمين، فهو ثاني المصادر التشريعية الرئيسة، ويشكل مع القرآن الكريم المصدر التشريعي الرئيس للدين الإسلامي. وقد جاء اهتمام المستشرقين بالحديث الشريف متأخرا نوعا ما، وذلك بعد أن شغلوا فترة بالدراسات اللغوية والتاريخية، ومن أشهر المستشرقين المهتمين بالدراسات الحديثية المذكورون فيما يلي:

1. شبرنجر (1813-1893م)، مستشرق نمساوي الأصل بريطاني الجنسية، وهو أول من نشر كتاب الإتقان للسيوطي، والإصابة للحافظ ابن حجر، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، كما كتب عددا من المقالات في السنة النبوية.[4]
2. وليم موير (1819-1902م)، مستشرق إنجليزي من أشهر مؤلفاته كتاب

[1] المرجع السابق، ص102.

[2] السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي** (المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط2، 1392هـ/1972م)، ج1، ص41.

[3] بداية القرن الرابع عشر الهجري هو بداية عام 1301هـ، الموافق: 1883/11/2م.

[4] شبرنجر Aloys Sprenger مستشرق نمساوي الأصل بريطاني الجنسية. أرسلته شركة الهند الشرقية إلى الهند طبيبا (1842م)، وولته الحكومة رئاسة الكلية الإسلامية في دلهي، ثم مدرسة كلكتا. عين أستاذا للغات الشرقية في جامعتي برن، وسويسرا. نشر كتاب إرشاد القاصد لابن الأكفاني (1849م)، والإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني (1856–1873م). من آثاره: أصول الطب العربي على عهد الخلفاء، واصطلاحات الصوفية. انظر العقيقي، نجيب، **المستشرقون** (القاهرة: دار المعارف، ط4، 1980م)، ج2، ص277–278.

"حياة محمد".[1]

3. المستشرق جولدتسيهر (1850-1921م)، يعد أستاذ المستشرقين ورائدهم في مجال الدراسات الإسلامية، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "دراسات محمدية"، و"العقيدة والشريعة في الإسلام"، و"مذاهب التفسير الإسلامي". رحل إلى سوريا، وجالس الشيخ طاهر الجزائري مدة، ثم رحل إلى فلسطين ومصر.[2]
4. فنسنك (1882-1939م)، مستشرق هولندي صاحب فهرس الموضوعات للحديث النبوي حسب حروف المعجم، والذي نقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي باسم "مفتاح كنوز السنة". كما أصدر مع جوينبول وهورفتز وغيرهم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف.[3]
5. سنوك هرجرونيه (1857-1936م)، مستشرق هولندي من أشهر المتخصصين في دراسة الفقه الإسلامي والأصول والحديث والتفسير في أوروبا.[4]

---

[1] وليم موير S. William Muir مستشرق إنجليزي، درس الحقوق في جامعتي جلاسجو وإدنبره، ودرس في جامعة إدنبره، كما عين رئيسا لها. ومن آثاره سيرة النبي، والتاريخ الإسلامي، ومصادر الإسلام، ونشأة الخلافة وانحطاطها وانهيارها. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص59؛ وجحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، ص39–40.

[2] إجناس جولدتسيهر Goldziher مستشرق يهودي مجري. انظر **المستشرقون**، للعقيقي، ج3، ص40–42. يقول الدكتور مصطفى السباعي في حديثه عن تشكيك المستشرقين بالسنة: "ولعل أشد المستشرقين خطرا، وأوسعهم باعا، وأكثرهم خبثا وإفسادا في هذا الميدان هو المستشرق اليهودي المجري جولدتسيهر". السباعي، مصطفى، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1398هـ/1978م)، ص189.

[3] فنسنك A. J. Wensinck (1882–1939م) مستشرق هولندي، حصل على الدكتوراه برسالة عنوانها: "موقف الرسول من يهود المدينة". أتقن اللغات السامية، وخلف سنوك هرجرونيه في كرسي العربية حتى وفاته. سعى إلى وضع "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"، بالتعاون مع عدد من المستشرقين، وقد باشروا العمل في هذا المعجم سنة 1923م، ونشر في سبعة مجلدات في ليدن (1936–1969م). انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص319–320؛ والندوي، الشيخ أبو الحسن علي الحسني، **الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1403هـ/1983م)، ص14.

[4] سنوك هرجرونيهSnouck Hurgronje مستشرق هولندي تظاهر بالإسلام، وتسمى بعبد الغفار، وأقام في مكة المكرمة. ويعد عميد العربية بعد جولدتسيهر، وله كتاب في الفقه الإسلامي. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص315–316.

6. جوزيف شاخت (1902-1969م)،[1] مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي وأحاديث الأحكام، يعد خليفة المستشرق جولدتسيهر في مجال الدراسات الإسلامية. وقد كان لآرائه أثر كبير في كتابات من جاء بعده من المستشرقين.

7. جيمس روبسون James Robson (1890-1981م)، مستشرق بريطاني له عدد من المقالات المتخصصة في علم الحديث، وهو كاتب مقال حديث في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة.[2]

2. موقف الكتاب المسلمين من جهود المستشرقين

تعددت مواقف الكتاب والباحثين من جهود المستشرقين، ويمكن أن نرجع تلك المواقف إلى موقفين أساسين:[3]

---

[1] جوزيف شاخت (Joseph Schacht) مستشرق ألماني عمل محاضرا في الدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد وليدن والجزائر وغيرها، وانتخب عضوا في مجامع وجمعيات عديدة، منها المجمع العربي بدمشق. له آثار كثيرة ومتنوعة، من أشهرها كتابه نشأة الفقه الإسلامي. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص469-471.

[2] جيمس روبسون (1890-1981م) مستشرق بريطاني من مدينة جلاسجو في بريطانيا، كتب عددا من المقالات في مجال علم الحديث في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، وفي عدد من الدوريات العلمية المتخصصة في الدراسات العربية والإسلامية. شغل منصب نائب كرسي الدراسات العبرية في جامعة جلاسجو (1915-1916 م)، وعين بعد ذلك محاضرا للغة العربية في جامعة جلاسجو (1928-1948م). حصل على الدكتوراه من كلية الثالوث في جامعة جلاسجو، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية في الإلهيات من جامعة سينت أندروز. شغل منصب رئيس كرسي الدراسات العربية في جامعة مانشستر (1949-1958م)، وكان عضوا في في هيئة تحرير مجلة **العالم الإسلامي**، المتخصصة في الدراسات الإسلامية (1947-1980م). انظر:
Who's Who, an annual biographical dictionary (London: A & C Block Publisher, Ltd.), 1981; "*Who Was Who*", vol. viii, (1981-1990), (London: A & C Block Publisher, Ltd. 1991); *The Writers Drectory* (1974-76), (London: St. James Press; New York: St. Martin's Press, 1973).

[3] انظر السباعي، **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم**، ص7-13؛ والعقيقي، **المستشرقون**، ج3، ص 606-623؛ و حسين، محمد بهاء الدين، **المستشرقون والحديث النبوي**، ص286 وما بعدها. أما الدكتور علي النملة فقد قسم المواقف إلى ثلاثة أقسام: موقف القبول المطلق، وموقف الرفض، وموقف المواجهة الإيجابية. انظر النملة، د. علي بن إبراهيم، **مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: استقراء للمواقف** (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1414هـ/1993م)، ص18-34.

أ. **الموقف الأول:** موقف المعجبين الذين أفرطوا في الثقة في دراسات المستشرقين والاعتماد عليها. ومن أشهر من يمثل هذا الاتجاه الأستاذ نجيب العقيقي، وقد ألف كتابا مستقلا يترجم فيه للمستشرقين، وفاء لبعض دينهم علينا كما يقرر هو نفسه، فقد شغلوا بنا عشرة قرون في جميع أصقاع الأرض وبسائر اللغات، وتناولوا جميع ما للشرق من دين وحضارة وثقافة بألوف المصنفات، "فلا أقل من أن نشكر لهم فضلهم على العربية بالعربية، ونذيعه في كتاب وإن لم يكن في مثل دقة كتبهم وعمقها وشمولها وجدها، هو: المستشرقون".[1] ويعبر عن أهمية دراساتهم وأثرها في نهضة الأمة بقوله: "كما وازنا بين عنايتهم بتراثنا واكتشافه وصونه وتحقيقه، وبين ما قمنا نحن في سبيله فرأيناها تكاد تكون متساوية. ووازنا كذلك بين ترجمة أحدهم وآثاره، فوجدناه يضاهيه خلقا علميا وعدد كتب، وأن لا غنى لنا عن معظمها في علومنا وآدابنا وفنوننا، ولا سبيل إلى جحد فضلها في فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما في تراثنا من ثراء، ثم على نهضتنا التي كانوا من دعائمها".[2]

ويرى العقيقي أن معظم المستشرقين كانوا منصفين للدين الإسلامي، فيقول بعد عرضه لأصناف المستشرقين العلمانيين: "وهكذا نرى أن الذين تعصبوا على الإسلام قلة لا تساوي الذين تعصبوا له على النصرانية، ولا تذكر بالنسبة للذين أنصفوه، ولا تحتسب بين مئات المستشرقين الذين تبرأ معظمهم منها".[3]

ب. **الموقف الثاني:** موقف المهاجم لكل ما يمت إلى المستشرقين بصلة، والمشكك في كل ما كتبوه ونشروه من أبحاث ودراسات. ويمثل هذا الاتجاه عدد من الباحثين في قضايا الاستشراق، الذين يرون أن هؤلاء المستشرقين "لم يأخذوا العلم عن شيوخه... وإنما تطفلوا عليه تطفلا، وتوثبوا توثبا. ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج

---

[1] العقيقي، **المستشرقون**، ج3، ص625.

[2] المرجع السابق، ج3، ص605.

[3] المرجع السابق، ج3، ص622.

على القسس... ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام، أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهم أنه يعرف شيئا وهو يجهله".[1]

ويرى الدكتور عبد العظيم الديب أن عناية المستشرقين "بالتراث كانت وما زالت وستظل من باب "اعرف عدوك". فهذه الكتب التراثية هي الخرائط والصور لعقولنا وعواطفنا ومشاعرنا واتجاهاتنا واهتماماتنا وحبنا وبغضنا ورضانا، فهي المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ثقافيا واجتماعيا وفكريا وعلميا، بعدما حطمونا عسكريا وحربيا وسياسيا".[2] ويشير في موضع آخر إلى جهودهم في تحقيق بعض الكتب ونشرها، وإنشاء الفهارس العلمية للأحاديث النبوية، واستفادة الباحثين منها، ثم يعلق قائلا: "ولعلي على حق حين أقول: ليس في ذلك فضل للمستشرقين أي فضل، فالأعمال بالنيات، ونحن في حياتنا اليومية نرفض كثيرا مما يقدم لنا لأننا نشك في نوايا من يقدمه... وإذا أردنا أن نشكر للمستشرقين هذه الجهود، فعلينا أن نشكر للمستعمرين إصلاحاتهم وأعمالهم التعميرية التي قاموا بها في البلاد التي استعمروها".[3]

ويعلق الدكتور السباعي على الموقفين السابقين قائلا: "في الحق أن كلا من الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال، وما تطرقوا إليه من أبحاث، ونحن قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع أعدائهم".[4]

ولعل من الإنصاف أن يقال: إن الأعمال العلمية الاستشراقية قد اتخذت طابعين

---

[1] هذا النص لأحمد فارس الشدياق، انظر السباعي، **الاستشراق والمستشرقون**، ص15؛ والعقيقي، **المستشرقون**، ج3، ص606.

[2] الديب، عبد العظيم، **المستشرقون والتراث** (القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1408هـ/ 1988م)، ص43-44.

[3] الديب، عبد العظيم، "المستشرقون والتاريخ"، مجلة **البعث الإسلامي** (تصدرها ندوة العلماء، لكهنو، الهند)، المجلد 27، العددان الأول والثاني، رمضان وشوال 1402هـ/يوليو - أغسطس 1982م)، ص143-144.

[4] السباعي، **الاستشراق والمستشرقون**، ص13.

رئيسين:[1] طابع سلبي وطابع إيجابي. أما الطابع السلبي، وهو الغالب على تلك الدراسات، فقد تميزت حركة الاستشراق -في عمومها- بالعصبية وعدم الإنصاف إلى حد بعيد من جهة، وبالجهل وعدم الفهم أو التجاهل من جهة أخرى، وبخاصة في أوائل نشأتها إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تقريبا، فقد كان أبناء هذه الحركة السبب الرئيس في انتشار الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين عند الغرب.

وأما الطابع الإيجابي، فيتمثل في جهود المستشرقين في إحياء التراث الإسلامي، وخدمة العلوم الإسلامية، في وقت غفل فيه المسلمون عن تراثهم، ونسوا واجبهم نحوه، مع ما قد يشوب هذه الجهود من دخن أو أهداف غير مشروعة أو جهل وعدم فهم أحيانا. وإلى هذا الطابع يشير الشيخ أبو الحسن الندوي، حيث يقول: "أعترف بكل وضوح وصراحة أن عددا من المستشرقين كرسوا حياتهم وطاقتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم، وبذلوا فيه جهودا ضخمة. ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين، وعاهة الأرضة. وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم، وقرت بها عيون العلماء في الشرق".[2] وينبه الدكتور السباعي إلى أن أصحاب هذا الصنف من الدراسات "لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجا عند رجال الدين، ولا عند

---

[1] انظر الندوي، تقي الدين، **السنة مع المستشرقين والمستغربين**، ص6.

[2] الندوي، الشيخ أبو الحسن علي الحسني، **الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1403هـ/1983م)، ص13.

رجال السياسة، ولا عامة الباحثين، ومن ثم فهي لا تدر عليهم ربحا ولا مالا، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين".[1]

والإنصاف يقتضي أن يعطى كل ذي حق حقه، وأن لا تظلم حركة الاستشراق عموما بسبب غلبة الطابع السلبي عليها، وما ظهر فيها من أعمال ذات أهداف مشبوهة، فقد علمنا القرآن الكريم الإنصاف في الأحكام، حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: 8). ففي الآية دعوة إلى أن لا يكون بغض ما عليه القوم من انحراف عن دين الله، ومعاداة لهديه وشرعه، سببا في ترك العدل وإيثار العدوان على الحق.[2] فظلم الظالم، واعتداء المعتدي، وكفر الكافر، ينبغي أن لا يكون مانعا من إنصافه والعدل معه، والحكم على النوايا ليس من اختصاص البشر، ما لم يصرح بها صاحبها، أو تكون هناك قرينة قوية تدل عليها. وهذا هو دأب الباحثين المنصفين، "فإذا قرأت مقدمة مفتاح كنوز السنة لأحمد محمد شاكر وجدت إكبارا وثناء للعمل الذي قام به "فنسنك"،[3] ولكن إذا قرأت موضوعا للمستشرق نفسه في "دائرة المعارف الإسلامية" وجدت أحمد محمد شاكر وغيره معلقا ومعقبا ومصححا ومقوما، فهذا شيء وذلك شيء آخر".[4]

ومما ينبغي التنبه له أن الاعتراف ببعض جهود المستشرقين القيمة لا يقتضي وصفهم بـــ"الإنصاف"، لأن الإنصاف يعني إعطاء الشيء حقه كاملا غير منقوص، يقال:

---

[1] السباعي، **الاستشراق والمستشرقون**، ص19.

[2] القرطبي، الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد عبد الحليم البردوني (القاهرة: دار الشعب، ط2، 1372هـ)، ج6، ص109. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ (المائدة: 2)، التي تؤكد أهمية العدل في الإسلام، حتى مع الخصوم والمعتدين.

[3] سبقت ترجمته.

[4] الندوي، تقي الدين، **السنة مع المستشرقين والمستغربين**، ص6.

"أنصف فلانا من فلان: استوفى له حقه منه".[1] والإسلام لا يمكن أن ينصف ما لم تتم دراسته على أنه وحي من الله تعالى أرسل به رسوله المصطفى ﷺ لهداية العالم أجمع وإخراجهم من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى، ولا يمكن أن ينطلق من ذلك إلا مسلم فهم حقيقة الإسلام وآمن به حق الإيمان. يقول الدكتور عماد الدين خليل في ختام مقال له حول السيرة النبوية والمستشرقين يبين فيه أخطاءهم المنهجية والموضوعية: "ولكن القوم -إذا توخينا الحكم الدقيق- ليسوا كلهم سواء، فقد شذ عنهم بعض المستشرقين، ولكل قاعدة شواذ. ورغم قلة هؤلاء بالنسبة للتيار الأوسع والأثقل، فإن صوتهم لم يضع، وقد مارسوا كشفا نقديا طيبا للكثير من أعمال رفاقهم في البحث، وألقوا الضوء على الثغرات والمطبات التي وقعوا فيها، وقد عرضنا لبعض مواقف هؤلاء: دينيه،[2] واط،[3] درمنغهم،[4] أرنولد.[5] ثم إن هؤلاء أنفسهم ما كانت رؤيتهم تصل أبدا درجة النقاء العلمي المطلوب، فهذا أمر يكاد يكون مستحيلا".[6]

---

[1] أنيس، د. إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط** (دون مكان نشر، ودون تاريخ)، مادة نصف، ج2، ص934.

[2] آتيين دينيه Et. ienne Dinet (1861-1929م) مستشرق فرنسي اعتنق الإسلام وتسمى بناصر الدين، من آثاره كتاب "محمد رسول الله"، ترجمه إلى العربية الأستاذ عبد الحليم محمود، ونشرته الشركة العربية في القاهرة، سنة 1959م. وقد رد فيه على الاتهامات التي كالها "الامانس" للنبي ﷺ. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج1، ص228؛ والجندي، الأستاذ أنور، مقال "المستشرقون والإسلام"، مجلة **البعث الإسلامي** (تصدرها ندوة العلماء، لكهنو، الهند)، المجلد 27، العددان الأول والثاني، رمضان وشوال 1402هـ/يوليو وأغسطس 1982م)، ص92؛ وخليل، "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص128، 140.

[3] مونتجمري واط Montgomery Watt، مستشرق إنجليزي، ولد في إسكوتلاندة عام 1909م، ودرس في جامعة إدنبرة وأكسفورد. عين عميدا لقسم الدراسات العربية في جامعة إدنبرة، ومن أشهر كتبه: محمد في مكة، ومحمد في المدينة، محمد نبي ورجل دولة. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص132؛ وجحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، ص53-54.

[4] إميل درمنجم Emile Dermenghem مستشرق فرنسي معاصر، عين مديرا لمكتبة الجزائر. من آثاره: حياة محمد، (وهو من أفضل ما صنفه مستشرق عن النبي ﷺ)، ومحمد والسنة الإسلامية (1955م). انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج1، ص348.

[5] توماس أرنولد Thomas Arnold (1864-1930م)، مستشرق بريطاني شغل أول كرسي للدراسات العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن. ومن مؤلفاته: دعوة الإسلام، 1898م، والخلافة، 1924م. انظر جحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، ص41.

[6] خليل، مقال "**المستشرقون والسيرة النبوية**"، ص133.

3. الاستشراق في العصر الحديث

ومما تجدر الإشارة إليه أن مصطلح "الاستشراق" أو "المستشرقون" أصبح من المصطلحات القديمة التي تخلى عنها كثير من المستشرقين المعاصرين بسبب ما اصطبغت به من أوصاف سلبية وتاريخ علمي بعيد عن الموضوعية. يقول المستشرق برنارد لويس[1] في مقال له يتناول فيه ما توصل إليه المستشرقون في مؤتمرهم العالمي في باريس، عام 1973م: "لقد أصبحت كلمة "مستشرق" منذ الآن فصاعدا ملوثة هي الأخرى أيضا، وليس هناك أمل في الخلاص... ثم سرعان ما تبين لهم أنهم متفقون جميعا على ضرورة التخلي عن هذه التسمية".[2]

ولذلك نجد أن بعض المستشرقين يرفض أن ينسب نفسه إلى هذا المصطلح، ومن هؤلاء المتخصص في الدراسات الإسلامية "جون أسبوزيتو" الذي رفض "في محاضرة ألقاها في السفارة الأمريكية بالرياض أن يدعى من المستشرقين، وفضل أن يدخل في حمى "علماء الإسلاميات".[3]

وقد توزعت تخصصات الاستشراق في العصر الحديث حسب الأديان والثقافات والحضارات التي يشتمل عليها، أو حسب المناطق الجغرافية التي يهتم بها، فهناك المتخصصون في الدراسات العربية والإسلامية، أو الدراسات الهندوسية من جهة، وهناك المتخصصون أو الخبراء بشؤون جنوب غرب آسيا، أو الشرق الأوسط... من جهة أخرى. فغاية ما في الأمر –حسب رأي المستشرق الإسباني فرانسيسكو غابرييلي–

---

[1] برنارد لويس Bernard Lewis. مستشرق بريطاني، ولد في لندن عام 1916م، ودرس في جامعتها، وهو أستاذ الشرقين الأوسط والأدنى في جامعة لندن، منذ 1949م. من آثاره: الإسلام في التاريخ، 1973م، عالم الإسلام، 1976م. انظر جحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، ص56–57.

[2] مطبقاني، د. مازن صلاح، "هل انتهى الاستشراق حقا؟"، مجلة **الشريعة والدراسات الإسلامية** (الكويت: جامعة الكويت، السنة الخامسة عشرة، العدد 43، رمضان 1421هـ/2000م)، ص289. نقلا عن برنارد، لويس، مقال "**مسألة الاستشراق**" انظر: صالح، هاشم، **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه** (لندن: دار الساقي، 1994م).

[3] النملة، "كنه الاستشراق"، ص32.

أن الاستشراق الذي كان يعد في البداية علما واحدا سرعان ما انقسم إلى فروع وتخصصات مستقلة بعضها عن بعض، ومتعلقة بمختلف الحضارات الخاصة بالشرق الإفريقي-الآسيوي، فالجمعيات الاستشراقية ما تزال قائمة،[1] والمؤتمرات الاستشراقية أخذت تميل إلى عقد مؤتمرات أكثر تخصصا بشؤون العالم العربي والإسلامي والهندي والصيني وغير ذلك من المجالات والتخصصات. ومن حق الغرب -كما يصرح غابرييلي- "أن يطبق على الشرق مفاهيمه ومناهجه وأدواته الخاصة التي كان قد بلورها في تاريخه الحديث، كما يحق للغرب أن يطبق معاييره الخاصة على ما ندعوه بالتاريخ والحضارة والثقافة والفلسفة والشعر. بمعنى آخر فإنه إذا كان البعض يحلمون بإمكانية جعل الفكر الغربي يتراجع عن نتائج دراساته التاريخية الطويلة للبشرية وتفسيرها، فإنهم واهمون".[2]

وهذا يؤكد استمرار حركة الاستشراق ومناهجها، وتطورها وعدم اضمحلالها وتوقفها، كما يشهد على تحول اهتماماتها وأولوياتها بما يتناسب مع المتطلبات والاحتياجات المعاصرة للمؤسسات التي يعمل فيها المنتسبون لهذه الحركة، والدول التي يعيشون في أكنافها. فاختفاء هذا المصطلح أو ندرة استخدامه، وظهور الأقسام والتخصصات الجديدة لا يعني بالضرورة توقف هذه الحركة أو نهايتها، وإنما هو نتيجة تطور طبيعي لمجال معرفي كان محصورا في عدد محدود من المتخصصين في دراسة الشرق عامة والعالم العربي والإسلامي خاصة،[3] وهذه الأقسام والتخصصات هي الصورة الحديثة لما كان يعرف سابقا بالاستشراق.

فالاستشراق -كما يصرح الدكتور أكرم ضياء العمري- لم يستنفد أغراضه

---

[1] مثل الجمعية الاستشراقية الألمانية، والجمعية الآسيوية الملكية الإنجليزية، والجمعية الآسيوية الفرنسية.

[2] مطبقاني، **"هل انتهى الاستشرق حقا؟"**، ص292-293، نقلا عن مقال **"ثناء على الاستشراق"**، فرانسيسكو غابرييلي (نشر في الأصل باللغة الفرنسية بعنوان: "Apologiede l'Orientalisme" في مجلة **Diogene**، العدد 50، 1995م).

[3] المرجع السابق، ص291.

بعد، فما زال قائما، وما زالت مئات الدوريات تصدر عنه، وما زالت المطابع تدفع إلى الأسواق مئات وألوفا من الكتب كل عام من تأليف الباحثين الغربيين.[1] ويخلص الدكتور المطبقاني إلى القول بإن الأقسام العلمية في الجامعات الأوروبية والأمريكية، وإن تسمت بأسماء مختلفة، كقسم الدراسات الشرق أوسطية، أو دراسات الشرق الأدنى، أو غير ذلك، فهي في حقيقة الأمر أقسام للاستشراق، والذين يعملون فيها مستشرقون، وإن تسموا بأسماء أخرى.[2]

المرتكزات الثقافية والمنهجية لدراسات المستشرقين علم الحديث

يتناول هذا المطلب المرتكزات المنهجية لدراسات المستشرقين في علم الحديث. ويمكن إيجاز تلك المرتكزات فيما يلي:

1. التحذير ضد الإسلام والبعد عن الموضوعية

يعد التحامل على الإسلام أحد أخطر المرتكزات التي انطلق منها المستشرقون في دراستهم للدين الإسلامي عامة وللحديث الشريف خاصة، فقد كان رائدا لكثير من أبحاثهم ودراساتهم.

ففي الوقت الذي يتصف فيه الباحث الأوروبي أثناء دراسته للأديان والحضارات الأخرى بالرصانة والاتزان، نراه يتنكر عند بحثه في الإسلام لهذا المنهج، فتعمل المحاباة العاطفية فعلها في هذه الرصانة الغربية، بصورة تكاد تكون دائمة ثابتة، فتضطرب وتختل.[3]

---

[1] انظر مطبقاني، **"هل انتهى الاستشرق حقا؟"**، ص287، نقلا عن العمري، أكرم ضياء، **موقف الاستشراق من السيرة النبوية** (الرياض: مركز الدراسات والإعلام، إشبيليا، 1417هـ/1998م).

[2] المرجع السابق، ص287، 302.

[3] انظر أسد، محمد، **الطريق إلى الإسلام**، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ط9، 1418هـ/1997م)، ص16-17، وأسد، محمد، **الإسلام على مفترق الطرق**، ترجمة الدكتور عمر فروخ (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م)، ص60-61.

وهكذا نجد أنفسنا "أمام ظاهرة فكرية نحتاج في تفسيرها إلى تفهم الأسس النفسية لأقدم العلاقات الفكرية بين العالمين الإسلامي والغربي. ذلك لأن ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوروبي. فهي تعود إلى فترة الحروب الصليبية والقرن الذي سبقها مباشرة".[1] ولعل الدافع إلى هذا التحامل والتحيز يعود إلى أمرين:

1. الشعور بالخوف من انتشار الإسلام، ونجد التعبير عن هذا الشعور بالخوف في ثنايا كتابات بعض المستشرقين. ففي مجلة العالم الإسلامي[2] يقول أحدهم : "إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب منها: أن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عدديا، بل دائما في ازدياد واتساع، ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد. ولم يتفق قط أن شعبا دخل في الإسلام ثم عاد".[3]
2. اتخاذ موقف عدائي ضد الإسلام، حيث نجد في كلام بعض المستشرقين وصف الإسلام بالعدو، ووصف العلاقة بين الإسلام والنصرانية بأنها علاقة عدائية. يقول المستشرق المونيسيور كولي، في كتابه البحث عن الدين الحق: "برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب. لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق...".[4] ويصرح المستشرق الألماني بيكر بهذا الموقف العدائي قائلا: "إن هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد

---

[1] عبد الحميد، عرفان، **المستشرقون والإسلام** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1980م)، ص3، وانظر أسد، محمد، **الطريق إلأى الإسلام**، ص17.

[2] خليل، مقال "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص112، نقلا عن مجلة *The Muslim World*، عدد حزيران، 1930.

[3] المرجع السابق، ص115.

[4] المرجع السابق ص112.

إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها".[1]

وقد أدى هذا التحامل على الإسلام ومهاجمته التحيز ضده والبعد عن الموضوعية بالمستشرقين في دراساتهم إلى الخروج بنتائج وأحكام مجانبة للحق والصواب.

وينبه المفكر النمساوي المسلم محمد أسد إلى أن موقف الأوربيين من الإسلام ليس موقف كره فحسب، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على تعصب شديد؛ كما أنه ليس كرها عقليا فحسب، بل يصطبغ بصبغة عاطفية قوية، حتى إن "أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام".[2] ويصرح المستشرق برنارد لويس[3] بما هو قريب من هذا فيقول: "لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية".[4]

ولقد كان من نتائج هذا التعصب ما يلي:

1. الافتراءات والاتهامات التي حاول المستشرقون من خلالها تشويه صورة الإسلام ورسوله وكتابه ومعتنقيه، وكالوا لهم سيلا من التهم والافتراءات ليس هذا مجال الحديث عنها.[5] وكلما رجع المرء إلى كتابات المتقدمين من المستشرقين رأى هذه الصورة تزداد حدة ووضوحا. وهكذا تكونت للإسلام في أوروبا صورة ذات ملامح بشعة ومشوهة أملاها الحقد والجهل.

---

[1] المرجع السابق، ص116.

[2] أسد، محمد، **الإسلام على مفترق الطرق**، ترجمة عمر فروخ (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م)، ص52–53.

[3] سبقت ترجمته.

[4] عبد الحميد، د. عرفان، **المستشرقون والإسلام**، ص4–5. نقلا عن لويس، برنارد، **العرب في التاريخ**، ص63. وهذا لا يعني أن هذا المستشرق قد تمكن من التخلي عن تلك العصبية، بل إن دراساته هو الآخر تطفح بالكثير من ذلك.

[5] انظر المرجع السابق، ص6–17؛ وخليل، مقال "**المستشرقون والسيرة النبوية**"، ص112–114. وانظر:
Southern R. W., *Western view of Islam in the Middle Ages* (Harvvard University Press, 1962), pp. 24-25, 30, 31, 74.

ويشير الدكتور عماد الدين خليل إلى ذلك بقوله: "بدأ موقف الغربي من رسول الإسلام يتشكل في إطار ديني مترع بالتعصب والتشنج والانفعال، مليء بالحقد والغضب والكراهية، تحيطه جهالة عمياء متعمدة حينا وغير متعمدة أحيانا، جعلت بين القوم وبين شخصية رسولنا عليه الصلاة والسلام سدا يصعب اختراقه... والنتيجة هو ذلك السيل المنهمر من الشتائم والسباب مارسها رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة، ومارسها رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة من قريب أو بعيد".[1] ويؤكد الدكتور عرفان عبد الحميد عدم موضوعية كتابات المستشرقين في القرنين التاسع عشر والعشرين المتعلقة بتاريخ الإسلام وحضارته وعقائده، وإن ادعى أصحابها الموضوعية أو الالتزام بروح البحث العلمي البعيد عن الهوى والعصبية، "فالصورة المشوهة القائمة للإسلام لا زالت قائمة في كلياتها، وإن طرأ تغير جزئي على بعض تفاصيلها، والدراسة التي تتنكب الموضوعية والنزاهة لا زالت هي السائدة الغالبة على هذا الحقل".[2]

2. التعاطف -في دراستهم للسيرة النبوية- مع العناصر المضادة للإسلام، وبخاصة اليهود، فقد شكك بعض المستشرقين في عدد من الروايات التي تتحدث عن غدر اليهود وخياناتهم، كما هاجموا موقفه ﷺ حيث أجلى اليهود من المدينة المنورة، وخيبر.[3]

2. المنهج المادي التاريخي

يعتمد المستشرقون في دراستهم للحديث الشريف على المذهب المادي التاريخي، وهو "نوع من فلسفة التاريخ يحاول توضيح العادات التي تطورت فيها الجماعات من الماضي البدائي إلى الوقت الحاضر، مع التنبؤ بما سيحدث في وقتنا الحاضر، وكذلك بما

---

[1] خليل، مقال "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص112.

[2] عبد الحميد، **المستشرقون والإسلام**، ص17.

[3] انظر تفصيلا حول هذه القضية في خليل، مقال "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص122-125.

سيقع في المستقبل".[1] ولا يؤمن هذا المنهج إلا بما تدركه الحواس، وبما يمكن تحقيقه من خلال المنظور البشري البحت. وبناء على ذلك يرفض المستشرقون أي ربط بين السنة النبوية والوحي الإلهي، مع أن كثيرا منهم ينتسب إلى الديانة اليهودية أو المسيحية. واعتماد هذا المنهج من قبل المستشرقين نتيجة طبيعية لعدم الإيمان بدين الإسلام وإنكار نبوة رسوله. فالحديث الشريف من وجهة نظرهم جهد بشري محض، وهو في أحسن أحواله صادر عن مصلح اجتماعي أو عبقري فذ، حرر قومه من الظلم الاجتماعي والفقر، أما الوحي فهو مجرد تصور ووهم وظن وخيال.

ولهذ ادعى بعض المستشرقين أن النبي ﷺ مصلح أو داعية إلى الحرية أو العدل الاجتماعي، أو غير ذلك مما يوصف به الزعماء والمصلحون، كما ادعى بعضهم أنه ناثر مبدع، ابتكر النثر الفني الأدبي. "ويقوم هذا التصور على عجز عن فهم الوحي ورسالة السماء أو إنكار له".[2]

وفي مقابل ذلك فقد بالغ بعض المتقدمين من المستشرقين في تشويه صورته ﷺ وتحريفها، ومن أشهرهم المستشرق لامانس[3] الذي تصدى له إتيان دينيه ورد على كثير من مفترياته، وقال: "لقد اخترت "لامانس" لأن شهرته العلمية خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به، مع أن ما ساقه من أدلة وبراهين في كتبه أغلبها من قبيل التمويه على القارئ والكذب على الحق والتاريخ".[4]

وهكذا حرص المستشرقون على نزع وصف النبوة عنه ﷺ أو التشكيك فيه.

---

[1] ينسب هذا المنهج إلى "ماركس" فيلسوف الفكر الشيوعي. انظر البهي، محمد، **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار** (القاهرة: مكتبة وهبة، ط12، 1411هـ/1991م)، ص282.

[2] الجندي، "المستشرقون والإسلام"، ص99؛ الجبري، **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين**، ص84.

[3] هنري لامانس Henri Lammens (1862–1937) مستشرق بلجيكي الأصل فرنسي الجنسية، له مصنفات وافرة. اتسمت مصنفاته بالتحيز وعدم الإنصاف. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج3، ص293–296.

[4] الجندي، مقال "المستشرقون والإسلام"، ص91. وانظر مناقشة لآراء هذا المستشرق في الجبري، **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين**، ص107–123.

فالمستشرق "فوستر" يدعي "أن قوم محمد كذبوه لأنهم لم يجدوا فيه صفات النبوة".[1] ويعتقد المستشرق سفاري الذي ترجم القرآن سنة 1752م، أن النبي ﷺ قد لجأ إلى السلطة الإلهية لكي يدفع الناس إلى قبول العقيدة التي يدعو إليها، "ومن هنا طالب بالإيمان به كرسول لله. وقد كان هذا اعتقادا مزيفا أملته الحاجة العقلية".[2] أما جولدتسيهر فيشكك في ظاهرة الوحي للنبي ﷺ ويفسرها بقوله: "فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرا عميقا... لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوته التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهيا، فأصبح -بإخلاص- على يقين بأنه أداة لهذا الوحي".[3]

وهذا أمر خطير ينبغي التنبه له والتحذير منه، فهو يشكل مفترق طرق في دراسة الحديث النبوي، فثمة نظرتان متناقضتان، وما يمكن أن يقال بناء على الأولى لا يمكن أن يقبل في الثانية.

فالمستشرقون يفصلون بين الحديث والوحي، وينظرون إلى الحديث نظرة مادية بحتة، وقد أدى بهم ذلك إلى نتائج لا يمكن التسليم بها في المنظور الإسلامي، ولعل من أبرز تلك النتائج ما يلي:

1. تجاهلهم لطبيعة الحديث الشريف وكونه وحيا من عند الله عز وجل، الأمر الذي يطبعه بطابع العصمة، فأطلقوا العنان لعقولهم في دراسة الحديث ونقده،

---

[1] فرانك فوستر مستشرق أمريكي ألف كتاب "تاريخ حياة محمد"، انظر الجبري، **السيرة النبوية وأوهام المستشرقين**، ص150-152.

[2] خليل، مقال "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص114.

[3] جولدتسيهر، إجناس، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين (القاهرة: دار الكاتب المصري، ط1، 1946م)، ص5-6. وانظر قول "بروكلمان" وهو يتحدث عن النبي محمد ﷺ وعلاقته بالوحي: "أعلن ما ظن أنه قد سمعه كوحي من الله"، في عبد الحميد، **المستشرقون والإسلام**، ص18.

دون اعتبار لهذه العصمة.[1]

2. ردهم للأحاديث التي تتعلق بالنبوءات والإخبار عما سيحدث في المستقبل من حوادث وفتن، لكون مثل هذه الأمور لا يمكن أن تصدر عن البشر. فهم يرون أن هذه الأحاديث من وضع الأجيال اللاحقة.[2]

3. ردهم للأحاديث التي تتحدث عن المعجزات؛ لأن ما تتحدث عنه يحتاج إلى قدرات خارقة لا يمتلكها البشر. والعقل الغربي -على حد تعبيرهم- يصعب عليه الاعتقاد بأصالة هذا النوع من الأحاديث وأنها قد صدرت عن النبي حقا.[3] ويعتقد جولدتسيهر وجليوم[4] وروبسون أن هذا النوع من الأحاديث إنما هو اختراع من المسلمين أرادوا به أن ينسبوا إلى رسولهم مثل ما ينسب إلى سيدنا عيسى عليه السلام أو غيره من الرسل من خوارق العادات، "فلقد ساد توجه عام عند المسلمين يدعوهم إلى رسم صورة لمحمد لا تقل شأنا عن الصورة النصرانية لعيسى".[5]

---

[1] انظر أمثلة لاعتماد المستشرق جيمس روبسون للمنهج المادي في نقده للأحاديث، فيما يلي:
Robson, James, “Hadith”, *The Encyclopaedia of Islam*, (Leiden, new edition, 1960-), vol. 3, P. 26. Robson, James, “The Material of Tradition II”, *The Muslim World* (Hartford, 41, 1951, pp.257-70), pp. 267-269. Robson, James, “Muslim Tradition: the question of authenticity”, *Memoirs and proceedings of the Manchester Literary & Philosophical Society*, (*Manchester Memoirs*), 93, 1951/52, pp. 84-102), pp. 93, 97.

[2] See Robson “Hadith”, *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p. 26.
وانظر: مقال "حديث"، للمستشرق "جوينبول"، **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة إلى العربية (القاهرة: دار الشعب، 1933م)، ج13، ص391.

[3] See *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, P. 26.

[4] ألفرد جليوم Alfred Guillaume (1888م-1962م)، مستشرق إنجليزي تخرج في جامعة أكسفورد، وعمل في فرنسا ومصر، وكان أستاذ اللغة العربية في معهد الدراسات العربية والإفريقية في جامعة لندن واختير عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق، عام 1949م، وفي بغداد، عام 1950م. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص117-118؛ ميشال جحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، ص48-49.

[5] Goldziher, Ignaz, *Muslim Studies* (*Muhammedanische Studien*), translated from the German by C.R. Barber and S.M. Stern, (George Allen & Unwin Ltd., London, 1971), vol. 2, p. 346. Cf. Guillaume, Alfred, *The Tradition of Islam* (Oxford University Press, 1924), pp. 135f; Robson, James, "The material of Tradition I", *The Muslim World* (Hartford, 41, 1951), p. 174.

4. زعمهم أن الأحاديث التي تتعلق باليوم الآخر والجنة والنار، والمواعظ، إنما هي أحاديث اقتبست مما جاء في الكتب السماوية السابقة. يتحدث المستشرق جولدتسيهر عن هذا النوع من الأحاديث فيقول: "ما كان يبشر به –خاصا بالدار الأخرى– ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير. لقد أفاد من تاريخ العهد القديم –وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء– ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم، ووقفوا في طريقهم".[1]
5. رد بعض الأصول والتشريعات الإسلامية إلى أصول يهودية، ومسيحية, ووثنية، وغنوصية شرقية، وفارسية زرادشتية،[2] وذلك اعتمادا على منهج ظاهري أساسه التماس الأشباه والنظائر بين الإسلام وبين الأديان والمذاهب الأخرى. فإذا وجدوا فيما جاء به الإسلام شبها ولو بعيدا بما جاء في تلك الأديان والمذاهب، بادروا إلى القول بأنها هي الأصل الذي اقتبس منه الإسلام هذه الفكرة أو تلك. فالمستشرق جولدتسيهر يرى أن الإسلام عبارة عن مجموعة أفكار تم صهرها في بوتقة واحدة، فيقول: "إن نمو الإسلام مصطبغ نوعا بالأفكار والآراء الهلينستية، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي كما تكون في عصر الخلفاء العباسيين يدل على عمل الأفكار والنظريات الفارسية، وتصوفه ليس إلا تمثيلا لتيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة الفلسفية".[3]

وهكذا أدى اعتماد المنهج المادي في دراسة ما جاء به النبي ﷺ من عقائد

[1] جولدتسيهر، **العقيدة والشريعة**، ص9.

[2] المرجع السابق، ص 5–6، 18–19.

[3] المرجع السابق، ص 5–6.

وتشريعات، إلى اجتهاد المستشرقين في رد تلك العقائد والتشريعات إلى ما حوته النحل والفلسفات القديمة من معتقدات وأفكار، عن طريق تلمس أي شبه بينها.

يتضح مما سبق أن أمام الباحث في الدراسات الإسلامية أحد طريقين:

الطريق الأول: هو الإيمان بأن محمدا ﷺ عبد الله ورسوله، وأنه يتلقى الوحي من الله عز وجل، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وذلك يقتضي الإيمان بما أخبر به ﷺ من أمور الغيب واليوم الآخر، متى صحت نسبة الخبر إليه عليه الصلاة والسلام.

والطريق الثاني: عدم الإيمان بنبوته ﷺ، الأمر الذي يقتضي إنكار أخبار الغيب التي جاء بها، والكفر برسالته والخروج من ملة الإسلام. وليس ثمة طريق ثالث أو حل وسط.

وقد صرح المستشرق كولسون Coulson، في ختام مقال له حول منهج نقد الأحاديث، بعدم إمكان التوفيق بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي في نقد الأحاديث، فقال: "ينبغي الاعتراف بكل صراحة بعدم إمكانية التوفيق بين المنهج الإسلامي والغربي في نقد الأحاديث، فكل منهما ينطلق من أرضية مختلفة. وليس ثمة طريق وسط يتسم بالموضوعية بين ما يستلزمه الاعتقاد الديني وما يقتضيه منهج النقد المادي التاريخي".[1]

3. نظرية التطور وتطبيقها على دراسة الأديان

تظهر كتابات بعض المستشرقين في علم الحديث تأثرهم بنظرية التطور، حيث طبقوا تلك النظرية على دراسة الأديان عامة، وقد أفضى بهم ذلك إلى القول بأن الصيرورة والتحول سنة حتمية، فليس هناك شيء ثابت.[2] ونلمح نتيجة التأثر بهذه النظرية في كتابات بعض المستشرقين، ومن أشهرهم المستشرق جولدتسيهر الذي خص

---

[1] Coulson, N. J., “European criticism of Hadith literature”, *Arabic literature to the end of the Umayyad period,* (The Cambridge history of Arabic literature II), Cambridge, 1983, p. 321.

[2] انظر بادي، جمال أحمد، مقال "موقف المستشرقين من السنة النبوية: الأهداف والوسائل والنتائج"، (مجلة **الإسلام في آسيا**، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، العدد الأول، يونيو، 2004)، 2004، ص262.

موضوع تطور الحديث بالدراسة والبحث في القسم الثاني من كتابه "دراسات محمدية"، وخلص إلى الشك في الأحاديث النبوية عامة، حيث قرر أن القسم الأعظم من الحديث إنما هو نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني. فالحديث -في نظره- لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في العصور اللاحقة،[1] وبذلك يقدم لنا الحديث صورة الحركة الفكرية التي تطورت في الأمة الإسلامية.[2]

وقد حاول أن يبرهن على كون الحديث انعكاسا لروح العصر عن طريق ربط بعض الأحاديث ببعض الأفكار والآراء التي ظهرت في القرون الأولى، زاعما أن أصحاب هذه الآراء هم الذين اختلقوا تلك الأحاديث ونسبوها إلى النبي ﷺ.

ومن الأمثلة على ذلك تشكيكه في الأحاديث الواردة في النهي عن الكتابة أو الإذن فيها، وزعمه أنها انعكاس لتطور المجتمع المسلم واختلافه حول مسألة كتابة الحديث. فبعد دراسته للروايات الواردة في المسألة استنتج وجود خلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي حولها، فأهل الرأي -في زعمه- يهمهم إثبات عدم تقييد الحديث، ليتخذوا من ذلك حجة على عدم صحته، وهذا القول يضر بخصومهم أهل الحديث، ولذلك لم يتورع الفريقان من وضع الأحاديث تأييدا لما ذهبوا إليه. ويخلص إلى القول بأن "الأحاديث الواردة في تقييد العلم أثر من آثار تسابق أهل الحديث وأهل الرأي إلى وضع الأقوال التي تؤيد سابق نزعاتهم في هذا الشأن".[3]

وانظر كيف يصور هذا المستشرق المحدثين والفقهاء بأنهم حزبان متعارضان

---

[1] انظر تعليق Pfannmueller على كتاب جولدتسيهر، كما جاء في زقزوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، ص101–102. وانظر: Goldziher, *Muslim Studies*, vol. 2, pp. 18f.

[2] جولدتسيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ص69.

[3] الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، **تقييد العلم**، تحقيق يوسف العش (د.م.، دار إحياء السنة النبوية، ط2، 1974)، مقدمة المحقق، ص16. وانظر: Goldziher, *Muslim Studies*, vol. 2, pp.183-186.

متخاصمان، يستحلان الكذب على رسول الله ﷺ! وقد أجاب الدكتور العش على هذه الدعوى في مقدمة تحقيقه لكتاب الخطيب البغدادي، وبين أن الخلاف في مسألة جواز الكتابة أو عدمه لم يكن بين أهل الحديث والرأي، فمن أهل الرأي من امتنع عن الكتابة، ومنهم من أقرها؛ ومن المحدثين من كره الكتابة، ومنهم من أجازها.[1]

ومن نتائج القول بهذه النظرية كذلك تشكيك جولدتسيهر في صحة قوله ﷺ: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ...»،[2] بحجة كونه مناسبا للأفكار الصوفية المتأخرة، وعدم مناسبته لصدر الإسلام.[3]

ومن المستشرقين الذين تأثروا بنظرية التطور وعملوا على تطبيقها في دراستهم للحديث الشريف المستشرق جوزيف شاخت Joseph Schacht. فقد كتب كتابا في نشأة الفقه الإسلامي تحدث فيه عن الأحاديث الفقهية وتطورها، وخرج بما يمكن أن يطلق عليه نظرية "تطور الأسانيد". فهو يعتقد أن الأسانيد ظهرت بشكل بدائي، ونمت وتطورت على يد الأحزاب المختلفة بطريقة عشوائية، ووصلت إلى الكمال في عصر أصحاب الكتب الستة، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، "ولهذا فمن الصعب علينا أن نشارك علماء المسلمين في ثقتهم بالأسانيد... فبعض الأسانيد التي يثق بها المحدثون، هي في الواقع نتيجة للانتشار الواسع للوضع في الجيل السابق للإمام مالك".[4]

4. الانتقائية وفقا لأغراض مسبقة

يعمل عدد من المستشرقين وفق منهج معكوس في البحث العلمي، وهو منهج

---

[1] انظر الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، **تقييد العلم**، مقدمة المحقق، ص21-22. وانظر عرضا ومناقشة لرأي جولدتسيهر في هذه المسألة، ص16-22.

[2] جزء من حديث أخرجه البخاري في **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6137، ج5، ص2384.

[3] انظر جولدتسيهر، **العقيدة والشريعة**، ص45.

[4] Schacht, Joseph, *The Origins of Muhammadan Jurisprudence* (Oxford: The Clarendon Press, 1950), p. 163.

الانتقاء الكيفي، حيث يبيتون فكرة معينة، ثم يبحثون بين الوقائع والروايات التاريخية عما ما يؤيد تلك الفكرة، ليستعينوا بها في تأييد ما يعتقدونه أو يذهبون إليه، متجاهلين في الوقت نفسه الأدلة والوقائع التي تخالف تلك الفكرة وتنقضها.

وينبه الشيخ أبو الحسن الندوي إلى ذلك بقوله: "ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات – من كل رطب ويابس – ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها؛ ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في أنفسهم وأذهانهم".[1]

وقد مثل الأستاذ جواد علي لأصحاب هذا المنهج بالمستشرق الإيطالي كايتاني،[2] وهو من المستشرقين الأوائل الذين كتبوا حول حياة الرسول ﷺ، فكثيرا ما يضع فكرة معينة في السيرة، ثم يشرع في إثباتها عن طريق الاستعانة بكل خبر يظفر به، قويا أو ضعيفا.[3] وقد نبه بعض المستشرقين إلى خطأ هذه المنهجية، فقد نقل إيتيان دينيه في كتابه "الشرق كما يراه الغرب" عن المستشرق سنوك هرجرونيه[4] قوله: "إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم إذا سخرت لأي

[1] الندوي، الشيخ أبو الحسن، "الإسلام والمستشرقون"، مجلة **البعث الإسلامي**، المجلد 27، العددان الأول والثاني، رمضان وشوال 1402هـ/يوليو وأغسطس 1982م)، ص14.

[2] الأمير ليون كايتاني Leone Caetani (1869–1926م) مستشرق إيطالي ولد في روما وتخرج في جامعتها، وتعلم سبع لغات منها الفارسية والعربية، ورحل إلى الهند وإيران ومصر وسوريا ولبنان. له آثار كثيرة من أشهرها: تاريخ الإسلام، في عشرة مجلدات (ميلانو 1912–1926م). انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج1، ص429–430.

[3] خليل، "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص120، نقلا عن علي، د. جواد، **تاريخ العرب في الإسلام**، ج1، ص95.

[4] سنوك هرجرونيه Snouck Hurgronje (1857–1936م) مستشرق هولندي تظاهر بالإسلام، وتسمى بعبد الغفار، وأقام في مكة المكرمة. ويعد عميد العربية بعد جولدتسيهر، وله كتاب في الفقه الإسلامي. انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص315–316.

نظرية أو رأي سابق".[1]

ويضرب المستشرق مونتجمري واط مثلا لاعتماد منهج الانتقاء، بالمستشرق الفرنسي لامانس، فيقول: "ولكنه -وللأسف- يتجاوز الأدلة كثيرا... إذ إن طريقته العابثة في معالجة المصادر ليست طريقة علمية، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته، دون أن يعبأ بالموضوعية".[2] وفي مناقشته لطريقة لامانس في الاستدلال، يقول واط: "ولكن لماذا يفعل لامانس ذلك؟ يبدو أنه يؤكد حقيقة النظرية التي يحاول التدليل عليها".[3] وانتقاد "واط" لـــ"لامانس"، لا يعني تحرره هو الآخر من المنهج الخاطئ في دراسة السنة والسيرة. فقد خصص الدكتور عماد الدين خليل دراسة نقدية لكتابه في السيرة النبوية "محمد في مكة"، لخص فيها جوانب الخلل المنهجي في دراسة هذا المستشرق بقوله: "نزعة نقدية مبالغ فيها تصل إلى حد النفي الكيفي وإثارة الشك حتى في بعض المسلمات، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساسا، وإسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة، وإعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص".[4]

ويعد الدكتور عماد الدين خليل المستشرق بروكلمان،[5] في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية، مثالا جليا لذلك، فهو "لا يشير إلى دور اليهود في تأليب الأحزاب على

---

[1] خليل، "**المستشرقون والسيرة النبوية**"، ص121.

[2] واط، موتجمري، **محمد في مكة**، ترجمة سفيان بركات (صيدا: المطبعة العصرية، د.ت.)، ص154.

[3] المرجع السابق، ص243.

[4] خليل، "المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات"، **مناهج المستشرقين**، ج1، ص193.

[5] كارل بروكلمان C. Brockelmann (1868-1956م) مستشرق ألماني، عين أستاذا للغة العربية في عدد من الجامعات، وانتخب عضوا في مجامع وجمعيات عديدة. ومن آثاره: **تاريخ الآداب العربية، وتراجم من روى عنهم محمد بن إسحاق** (ليدن 1890م). انظر العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص424-430.

المدينة، ولا إلى نقض بني قريظة عهدها مع الرسول ﷺ في أشد ساعات محنته، ولكنه يقول: ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال".[1]

هذه الأمثلة ونحوها تدل عن المنهج الانتقائي الذي يستخدمه بعض المستشرقين لتأكيد آراء مسبقة اقتنعوا بها، في مقابل إهمالهم وتجاهلهم لأدلة كثيرة تناقض ما ذهبوا إليه.[2]

5. الاستقراء الناقص وتعميم نتائجه

يعتمد المستشرقون أحيانا على انتقاء معطيات بعض جوانب القضية المطروحة للبحث من مصادر ومراجع محدودة مختارة، ثم يعممون نتائج تلك الدراسة الانتقائية ويصدرون الأحكام بناء عليها، وكأنها أحكام عامة توصلوا إليها بعد استقراء وتتبع تامين، مع أنها في الحقيقة نتيجة استقراء ناقص لا يصلح دليلا لإصدار الأحكام وتعميمها. ومن الأمثلة على تطبيق هذا المنهج من قبل المستشرقين ما توصل إليه المستشرق جولدتسيهر من التشكيك بما ثبت من كتابات في عهده ﷺ وفي عهد الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين، فهو قائم على استقراء ناقص للروايات المتعلقة بهذا الموضوع، والتي تثبت وجود عدد من الكتابات للسنة منذ عهده ﷺ.[3]

ويمكن أن يمثل لهذا المنهج بدراسة المستشرقين لواقع الاشتغال بعلم الحديث عند المسلمين، والنتائج التي توصلوا إليها فيما يتعلق بطبيعة ذلك الاشتغال، حيث صوروا المجتمع المسلم بجميع طوائفه وطبقاته مهتما بوضع الحديث، لتأييد الفرق والمذاهب

---

[1] خليل، "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص122.

[2] انظر تفصيلا لهذه المسألة ومثالا لها في دراسات المستشرق شاخت حول السنة، في المرجع السابق، ص114-121، و128-132؛ و الدريس، **العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة**، ص104-108، 114-121.

[3] انظر عرضا لآراء المستشرقين حول تدوين السنة في الأعظمي، **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، ج1، ص72 وما بعدها؛ وحسين، **المستشرقون والحديث النبوي**، ص66 وما بعدها.

المختلفة، ولتلبية حاجات العصور المختلفة. ومن ذلك قول المستشرق جيمس روبسون: "إن ما حصل بالفعل هو أن مجموعة من المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي اعتنوا بدراسة الأحاديث، بل واختلاقها، ولكن هذا الاختلاق كان لأهداف حسنة غالبا".[1] ويؤكد أن هذا الواقع ينطبق على جميع طوائف المسلمين، فقد أصبح اختلاق الأحاديث من الممارسات العامة، وذلك من أجل دعم وجهات نظر الطوائف المختلفة، يستوي في ذلك المسلمون الصالحون وغيرهم.[2] وقد صرح بذلك سلفه جوينبول الذي يقول: "وبعد وفاة محمد لم تستطع الآراء والمعاملات الأصلية التي سادت في الرعيل الأول أن تثبت على حالها من غير تغير، فقد حل عهد للتطور جديد ... وسرعان ما أدى هذا بالضرورة إلى وضع الأحاديث، فاستباح الرواة لأنفسهم اختراع أحاديث تتضمن القول أو الفعل ونسبوها إلى النبي لكي تتفق وآراء العصر التالي".[3]

إن هذه النتيجة التي توصل إليها المستشرقون مبنية على استقراء ناقص، لا يشمل جميع المشتغلين بعلم الحديث، بل يركز على طائفة منهم، ولذلك جاءت ممثلة لبعض الفرق المشتغلة بعلم الحديث، وأعني بذلك طائفة "الزنادقة"، و"الزهاد"، و"القصاص"، إضافة إلى بعض الجهلة من أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، لكنها لا تعكس جهود المحققين من المحدثين وموقفهم من الحديث الشريف، وقيامهم بالحفاظ عليه من الآثار السلبية لتلك الطوائف. وهكذا عمم المستشرقون نتيجة هذا الاستقراء، وحكموا به على جميع المشتغلين بعلم الحديث على حد سواء، مع أن واقع تلك الطوائف لا يمكن أن يمثل بحال من الأحوال الصورة الكاملة، والواقع المتكامل لطبيعة عناية المسلمين بدراسة الحديث الشريف. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المحدثين أنفسهم نبهوا إلى

---

[1] Robson, James, "Tradition: investigation and classification", *The Muslim World.* (Hartford. 41, 1951), p. 98.

[2] See Robson, James, "Non-Resistance in Islam", *Transactions of the Glasgow University Oriental Society* (Glasgow, 9, 1938/39), p. 3; & Robson" Tradition: investigation and classification", p. 99.

[3] **دائرة المعارف الإسلامية**، ج13، ص390.

خطر تلك الطوائف، وبينوا وقوعها في وضع الحديث، وحذروا الأمة من الأحاديث التي تتداولها وتعمل على نشرها، كما ردوا على الشبهات التي يتعلق بها بعضهم في إباحة الوضع لأهداف نبيلة.[1]

ويمكن أن تعد بعض دراسات المستشرق شاخت في علم لحديث مثالا للاستقراء الناقص، فقد نبه الدكتور الأعظمي على أنه في دراسته للأسانيد اعتمد على موطأ الإمام مالك، وموطأ الإمام محمد الشيباني، وكتاب الأم للإمام الشافعي. وغني عن القول أن هذه الكتب أقرب إلى الفقه منها إلى الحديث، ومع ذلك عمم نتائج دراسته على كتب الحديث كافة، مما أوقعه في أخطاء جسيمة.[2] فاختيار شاخت لتلك الكتب التي يمكن أن يجد فيها ما يؤيد وجهة نظره في نشأة الإسناد وتطوره، يدل على منهج انتقائي في اختيار المصادرمن جهة، كما أنه مثال واضح على استقراء غير تام لمصادر الدراسة؛ وقد أوقعه هذا الخطأ المنهجي في نتائج خطيرة تتمثل في زعمه الذي أشرت إليه سابقا حول نشأة الأسانيد وتطورها.[3]

6. الاعتماد على المصادر غير الأصيلة

من المرتكزات المنهجية الرئيسة التي انحرفت بأبحاث المستشرقين عن جادة الصواب، في دراساتهم للحديث النبوي خاصة والإسلام عامة، اعتمادهم على المصادر غير الأصيلة في التخصصات المختلفة، والتي لا يجوز الاعتماد عليها في ميدان البحث العلمي. ومن مظاهر تبني هذا المنهج لدى المستشرقين ما يلي:

---

[1] انظر السيوطي، **تدريب الراوي**، ج1، ص281-286؛ وابن قتيبة الدينوري، الإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم، **تأويل مختلف الحديث**، تحقيق محمد زهري النجار (بيروت: دار الجيل، 1393هـ/1972م)، ص279.

[2] انظر الأعظمي، **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، ج2، ص397-398؛ والدريس، **العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة**، ص106.

[3] انظر بيانا لاتباع المستشرق شاخت لهذا المنهج في دراساته حول السنة، في الدريس، **العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة**، ص114-121، و128-132.

1. اعتماد بعض المستشرقين الدارسين للحديث النبوي على كتب الأدب أو الفقه في دراستهم لقضايا علم الحديث. ويبدو هذا واضحا في كتابات المتقدمين من المستشرقين، فتراهم يستشهدون في دراستهم للحديث وعلومه بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والحيوان للدميري، وكتاب ألف ليلة وليلة،[1] وغيرها من الكتب التاريخية والأدبية العامة. والمستشرقون بفعلهم ذلك يقعون في خطأ منهجي كبير، فلا يخفى ما في هذه الكتب من الروايات الموضوعة والقصص العجيبة الغريبة. وقد أشار الدكتور السباعي إلى هذه الظاهرة بقوله: إن المستشرقين "ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في قضايا الفقه، وهم يصححون ما يقوله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ"[2].
2. الاستشهاد بالروايات الضعيفة والشاذة لتأييد آرائهم ومزاعمهم، فالمستشرقون وجدوا في تلك الروايات ضالتهم، فكثيرا ما تسعفهم في تأييد مزاعمهم، وتحقيق أهدافهم، بينما لا تسعفهم الرويات الصحيحة في ذلك. ويقرر الأستاذ جواد علي استشهاد المستشرقين بالشاذ والضعيف بقوله: "لقد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف في بعض الأحيان، وحكموا بموجبه، واستعانوا بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور... تعمدوا ذلك لأن الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك".[3]

تلك هي أهم مرتكزات المستشرقين الثقافية والمنهجية في دراسة علم الحديث الشريف حسب اطلاع الباحث واستقرائه. والتي ينبغي الوقوف عندها ومناقشتها، قبل المضي في دراسة شبهاتهم الجزئية حول هذا العلم، حيث إن التمكن من بيان زيف

---

[1] انظر الديب، مقال "**المستشرقون والتاريخ**"، ص147-148.

2 الجندي، مقال "**المستشرقون والإسلام**"، ص94.

[3] خليل، مقال "المستشرقون والسيرة النبوية"، ص117، نقلا عن علي، جواد، **تاريخ العرب في الإسلام**، ج1، ص118.

هذه المرتكزات يعمل على تجلية موقفهم من هذا العلم الشريف، ودحض شبهاتهم حوله، وتحصين المسلمين ضد تلك الشبهات.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن تلك المرتكزات تمثل أسسا رئيسة لدراسات المستشرقين في علم الحديث عامة، ولا تستلزم أن كل باحث غربي في هذا العلم ينطلق منها جميعا، فربما تحرر بعض المستشرقين – لاسيما المعاصرين منهم – من بعضها أو من كثير منها. وأرجو أن تسهم هذه الدراسة من خلال تجليتها لتلك المرتكزات في أمرين رئيسين:

1. إدراك المسلمين لحقيقة موقف المستشرقين من الحديث الشريف، وشبهاتهم حوله، وتعرفهم على الطريقة المناسبة لمناقشة تلك الشبهات والرد عليها.
2. إدراك الباحثين الغربيين المعاصرين لحقيقة المؤثرات التي تصرف أبحاثهم –في الإسلام عامة وفي الحديث الشريف خاصة– عن الموضوعية والإنصاف، عسى أن يعملوا جاهدين على التخلص منها وتجنب آثارها.

خاتمة

يمكن تلخيص **نتائج البحث** فيما يلي:

1. تعريف المراد بمصطلح "الاستشراق" و"المستشرقون"، وبيان نشأة حركة الاستشراق الرسمي وغير الرسمي.
2. بيان المواقف المختلفة من الاستشراق بين إفراط في الثناء والمدح، وتفريط يتمثل في تجاهل جهودهم العلمية والتشكيك فيها؛ والدعوة إلى اتخاذ موقف وسط ينصف المستشرقين، فيعترف بالجهود العلمية لبعضهم، كما يحذر من الانحرافات الخطيرة في دراسات كثير منهم. فالإنصاف يقتضي أن يعطى كل ذي حق حقه، وأن لا تظلم حركة الاستشراق عموما بسبب غلبة الطابع السلبي عليها.

3. التأكيد على استمرار حركة الاستشراق ومناهجها وتطورها، وعدم اضمحلالها وتوقفها، وإن طرأ تحول على مسمياتها، ومجالات اهتماماتها، بما يتناسب مع المتطلبات والاحتياجات المعاصرة للمؤسسات التي يعمل فيها أبناء هذه الحركة، والدول التي يعيشون في أكنافها. والتنبيه إلى تخلي بعض المستشرقين المعاصرين عن مصطلح "الاستشراق"، لما اصطبغ به من أوصاف سلبية، وتاريخ علمي بعيد عن الإنصاف والموضوعية.
4. إعطاء صورة كلية لطبيعة اهتمام المستشرقين بالحديث النبوي الشريف ودراساتهم حوله، من خلال تجلية المرتكزات المنهجية الرئيسة لدراسات المستشرقين في علم الحديث، وعرض بعض نتائج تلك المرتكزات. فقد كان لتلك المرتكزات المنهجية أثر واضح في طريقة تناول المستشرقين لعلم الحديث الشريف، والنتائج التي توصلوا إليها، حيث أوصلتهم إلى نتائج بعيدة عن الصواب، ولا تنسجم مع طبيعة الحديث الشريف، ونتج عنها العديد من الشبهات الفرعية المتعلقة بهذا العلم.
5. توصل البحث إلى عدد من المرتكزات المنهجية الرئيسة لدراسات المستشرقين في علم الحديث، والتي تتمثل في التحامل على الإسلام والبعد عن الموضوعية، واعتماد المنهج المادي التاريخي، ونظرية التطور، ومنهج الانتقاء الكيفي، والاستقراء الناقص؛ إضافة إلى الاعتماد على المصادر غير الأصيلة.